

بغداد عاصمة الادب العباسي

تمازج العناصر البشرية

في

بغداد العباسيين*

بقلم فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

تقدم لنا كلام واسع في تأسيس بغداد وازدهارها ، وما تقلب عليها من الحوادث^(١) . فبقي ان ندرس بشيء من التفصيل احوال تلك الشعوب المتنوعة التي كانت تعيش في بغداد ، فتتازع وتتطاحن في سبيل الحياة ، ولكل منها طريقه الخاص ، فيكمل لنا درس البيئة الجغرافي .

لقد كان في بغداد العرب ارباب الخلافة ، والدين ، والوزارة احياناً . والفرس اصحاب الوزارة والادارة ، والجيش ، والولايات ، ورجال الحساب والتنجيم ، والعلوم والصناعات على اختلاف انواعها . ثم الترك ضباط المعسكر ، ومادة الحروب . وعناك الاراميون نقلة العلوم ، واساتذة المنطق والفلسفة والطب .

*) مادة المحاضرتين الثالثة والرابعة من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » في فرع « الفللفة والآداب السامية » .

(١) اطلب الجزء الاول من « مشرق » هذه السنة ص ٦٥ - ١٠٩ ، وقد نشرنا في آخر البحث جدولاً بالأخذ من عربية واجنبية . ولما كانت هي نفسها نذكرنا ايضاً في بحثنا الحاضر ، لم نر من حاجة الى اعادة ذكرها في هذا المقال . اماناً نتند اليه من المآخذ الجديدة ، فنذكره في المرفقي .

والهنود اصحاب الطب ايضاً ، والحساب والتنجيم .
 واليهود قادة المناير ، وارباب بيوت الصّرف .
 والسنديون للصناعات المتنوعة .
 والزنج للخدمة والملاهي .
 والرُّط للسؤال والتلّصص .

وهناك الجوّاري ، من جميع هذه العناصر الاجنبية عن العرب ، المتفائلات في التأثير حتى الى بلاط الخليفة .

هذا من حيث الاجناس . اما الاديان في بغداد فلم تكن اقلّ تنوعاً واختلافاً . فهناك المسلم السني ، والشيعي ، والنصراني يعقوبي ، والنسطوري ، والملكاني ، ومكّرم الايقونات ومحاربا ، واليهودي ، والصابي ، والمجوسي ، والبوذي ، والرّنديين . هذا عدا تباع البدع الناشئة عن التلّصص في الاديان كالمعتّلة والمشبهة وما الى ذلك مما يطول تمداده .

كل هذه العناصر كانت تتعايش في بغداد ، فتعاون وتتنافس ، وتتصارع وتتطاحن ، وتتراج . فينشأ عن كل ذلك امتزاج بل امتزاجات متنوّعة تصبغ هذه الثقافة المسمّعة المظاهر التي ندعوها بالثقافة العباسية والتي لا يبيّنا منها ، هذه السنة ، الا مظهر واحد ، هو الادب العباسي .

على انه لا يُتاح لنا درس صفات هذا الادب الا اذا شاهدنا عن قرب تفاعل العناصر المتنوّعة في تلك البوتقة الهائلة ، بغداد .

العرب

جاء في سفر التكوين (١٦: ١٢) في وصف اسماعيل جدّ العرب :
 « ويكون رجلاً وحشياً يده على الكل ويد الكل عليه ، وامام جميع اخوته ينصب مضربه » . هكذا كان اسماعيل . وهكذا ظلّ حفيده العربي في عزله وانفراده ^(١) . لا يرتفع فوق فكرة الفرد والبيت . واذا سما الى مدلول اجتماعي

(١) اطلب بحثاً دقيقاً في الموضوع للاب لامنس: تسمية البدو قبل الاسلام في «المشرق»

فانه يعزل الى فكرة القبيلة . اما ما فوق ذلك من معنى الامة او الوطن فبشأ
نفتش عنه في عقلية البدو وما ذنبهم ؟ وهم لم يعرفوا الاستقرار ولا شعروا
بالاطمئنان الى ارض ثابتة ا

حتى ان الإسلام الذي وحّد صفوفهم ، في اول عهده ، اذ دفعهم الى
الخروج من جزيرتهم ، لم يقوَ إلا قليلاً على توحيد نزعاتهم القبلية اذ لم يقوَ إلا
قليلاً على تغيير طبيعة بلادهم ؛ وذلك بفضل ما بذله ممارسة الكبير وبعض
خلفائه من العمل الدائب على تحضير الحجاز وتوطين البدو . فكانت تلك الدولة
المرية حقاً بكل ما فيها من دين وعلم وسياسة وادب .

على ان طبيعة البدو كانت تنفر من الاقامة في المدن والقرى . فلا تبدو
لهم فرصة الا اغتصموا للعود الى صحرائهم النسيحة ، يهيمنون فيها شأنهم منذ
عهد اسماعيل ، وشأنهم في ايامنا ، وشأنهم الى ما شاء الله . فكانوا يرجعون
منحدرين من فكرة الشعب والوطن الى فكرة الفرد والقبيلة .

وقد عزز هذه الحركة انتقال الخلافة الى العباسيين ، فولى هؤلاء وجوههم
شطر فارس ، وأهملوا الحجاز اهلاً تاماً ، الا في موسم الحج ، حتى بارت تلك
الواحات المزدهرة على عهد الامويين ، واضحل بعضها من الوجود تماماً كقرية
« فدك » التي لا نرى لها ذكراً بعد عصر بني امية . وانصرف الخلفاء الجدد
الى تولية الفرس ، على الغالب ، بعد ان كان الامويون يحتقرون الموالي .

فلم يبقَ للعرب إلا التناخر بعزهم الماضي ، في صدر الإسلام او قبله ،
فعادوا الى شئيتهم الازلية من التعصب لكل لقبيلته في القول والعمل ، حتى كان
الولاة منهم — وقد اصبحوا اقلية في عصر بني العباس — لا يبالون المزاحمة
الفارسية ، ولا يكادون يفكرون ، اذا ما نالوا الولاية ، الا بالتنكيل باعداء
قبيلتهم من العرب . فزى معن بن زائدة ، اذا تولى اليمن ، في اوائل العصر
العباسي ، ينكل باهلها تعصباً تقومه من تزار . فيثار منه عقبه بن سالم ، والي
عمان والبحرين ، فينكل بالقيسين تعصباً تقومه من قحطان^{١)} .

(١) السعدي : مروج الذهب (طبعة Barbier de Meynard) ، ٤٥ : ٦-٤٦ .

وهناك الثمراء. واي قبيلة سلمت من هجائهم !
 بل ان هذه النزعة القبلية الفردية تجاوزت مظاهر الاجتماع الى الصلاة
 والعبادة، وشملت جميع العرب من كبيرهم الى اديبهم الى سرتهم على السواء.
 فقد روى المبرد عن «شيخ من الأزد ثقة»، عن رجل منهم، ان كان يطوف
 بالبيت وهو يدعو لأبيه . فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تميمية «^١ .
 هذا وكل ما يمكن ان نمدده من الأمثلة ضئيل في تمثيل هذه العصبية
 الداخلية التي كانت تقسم العرب قبيلة على قبيلة وناحية على ناحية . وكان
 اشدها ذاك النزاع بين الشمال والجنوب ، بين الزارية والقحطانية ، حتى ان
 اهل اليمن لم يفتروا الله — على قول الجاحظ — انه ارسل نبيهم من مضر .
 على ان بعض العقلاء جربوا ان يجمعوا بين هذه النزعات العربية لمقاومة
 الاعاجم فقالوا :

«العرب كلهم شي . واحد لان الدار والجزيرة واحدة ، والاخلاق
 والشيم واحدة ، وبينهم من التواضع والتشابك والاتفاق في الاخلاق وفي
 الاعراق من جهة الخوالة المرددة والصومة المشبكية ، ثم المناهضة التي بنيت
 على غريزة التربة وطباع الهواء والماء ، فهم في ذلك شي . واحد في الطبيعة
 واللغة والمهنة والشاكل والمراعي والراية والصناعة والشهوة لما بحث ائمة غير
 وجل نبياً من العرب فقد بعثه الى جميع العرب وكلهم قوم ولانهم جميعاً
 يد على المعجم»^٢

وقد كان يجمع بينهم الفخر بصفة العرب والقشايخ على من سواهم من
 الشعوب وان كانوا مسلمين . يظهر ذلك باحتقارهم للرومي من فرس وقبط
 وروم . حتى اصبح من العقائد ، على عهد الامويين ، ان « لا يصالح تقضا . ألا
 لعربي » ، فضلاً عن الخلافة والامامة وما الى ذلك من التراتب والتركيز .
 وعندما اخذ بنو العباس في تولية الرومي ، جازت على عكس سياسة

(١) المبرد : الكافي (طبعة مدر) ١ : ٤٩٠ .

(٢) الجاحظ : البيان والتهيين (طبعة السندوي) ٣ : ١٦٩ .

الأمويين ، كانوا أبعد من ان يحجروا هذا الشعر بسم المعصر العربي . بل انهم علموا على تغريزه في صدور العرب اذ جرحهم بتنجيهم عن مراتب الدولة ، كما جرحهم بآبادة معالم تلك الدولة العربية الفخمة ، بفضاعتهم المائلة في تنكيلهم بالأمويين تنكيلاً شديداً تجاوز الأحياء . الى الموتى .

نقد روى عمرو بن هاني الطائي قال : « خرجت مع عبدالله بن علي - وهو عم السفاح والمتصور - لنهب قبور بني أمية في ايام ابي العباس السفاح . فانتبهنا الى قبر هشام فاستخرجناه صحيحاً لم يسقط منه الا خورمة انفه . فضربه عبدالله ثمانين سوطاً ثم احرقه . واستخرجنا سليمان من ارض دايق فلم نجد منه شيئاً الا صلبه واضلاعه ورأسه ، فاحرقناه . وفضلنا ذلك بغيرهما من بني أمية . وكانت قبورهم يتيسرون . ثم انتهينا الى دمشق فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً . واحترقنا عن عبد الملك فما وجدنا الا شؤن رأسه . ثم احترقنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه الا عظماً واحداً . . . ثم تتبعنا قبورهم في جميع البلدان فاحرقنا ما وجدنا فيها منهم . »^{١١}

فأصبح العرب الخاضعين وقد أجمعت في صدورهم عاطفة سدة المنصر الى عاطفة الشعوب بالظلم اللاحق هذا المعصر . لسبب الموالى عامة والعرب خاصة ، يبغضون كل من ينسب الى غير العرب حتى وان كان ابوه عربياً ، بل يقول :
وتحسراً من كان ابوه عربياً ، و . . . مولاته . كما كانت الحال في اكثر خلفاء بني العباس ، وهم يستنون هذا لوليد « هجياً » . والمهجين في الاصل غير العتيق من الخيل فان يكون ابوه حوذاً عربياً وامه برذونة ، ثم اللئيم . قال الجاحظ : قلت لعبد الكندي وكان فصيحاً فقيهاً : « أيسرك ان تكون هجيناً وانك انت جريب ؟ » قال : « لا احب اللؤيم بشي . . . قلت . « فان امير المؤمنين ابن امة . » قال : « الخزي نمة من اطاعه . . . والله الزبالي » :

ان الورود النيراني كندوا ، بارب . فينا
رأى . أوحى سرراً . و ارى فيها هجينا

ولكن كان من المير على الرياشي ان يدخل في العراق ، بلدة لا يرى فيها هجيناً . لان هؤلاء كانوا قد كثروا كثرةً عجيبةً ، ولا سيما في بغداد ، لما كان من اقبال العرب على الزواج من العجيبات ، وعلى شراء الجوارى . يقولون بتدفعهم على سائر الشعوب ويُعلنون كرههم للموالي ، ولا يملكون انفسهم عن الزواج بيناتهم ، ولا يملكون شهرتهم عن شراء الجوارى . وذلك لانهم كانوا يرون في اولئك النساء جمالاً لا يرونه في العرب . بل انهم كانوا يرون اولئك النساء ، ولا يرون نساء العرب ، بفضل الحجاب . وهو ما اشار اليه الجاحظ ، اذ اراد ان يسل تلك الظاهرة الاجتماعية التي جعلت العرب يرغبون في الاماء عن العريئات ، فقال : « ان الرجل قبل ان يملك الامة قد (تأملها) . . . والحوة انما يُستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرون من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً والرجال بالنساء ابصر . . . وقد تحمن المرأة ان تقول : كأن اذنها سيف ، وكان عينها عين غزال ، وكان عنقها ابريق فضة . . . وهناك اسباب أخر بها يكون الحب والبغض ا »

بيننا من كل هذا ان الجيل الذي نشأ عن هذا الامتزاج كان اقرب الى العصبية الاجنبية منه الى العرب ، اي انه كان يميل الى اخواله بدل ان يتعصب لاعمامه . وذلك انه رأى من العرب احتقاراً هو غير جدير به اذ كان احد ذكاء واحكم للامور على اختلاف انواعها ، لفضل ما فيه من تنوع الدم وتجدد العناصر . والتاريخ شاهد على صحة هذا الرأي . فلنأخذ اشهر خلفاء بني العباس ولنفتش عن امهاتهم . ليس افضاهم حزمياً وادارةً وعلماً المنصور ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتمد ، والوائق ، والمتوكل . فالمنصور امه بربرية اسمها سلامة ؛ والرشيد امه رومية من خرسنة على الفرات اسمها الخيزران ؛ والمأمون امه فارسية من خراسان اسمها سراجل ؛ والمعتمد والوائق والمتوكل ابنا اماء ثلاث اسم الاولى ماردة ، والثانية قراطيس ، والثالثة شجاع . بل لتقابل بين المأمون والامين وهما ابنا رجل واحد الا ان ام الاول امة فارسية ، وام الثاني سيدة عربية هي زبيدة .

وكان من الطبيعي ان هؤلاء المهجنا ، ابنا الاماء ، اذ يرون انفسهم

موضع الاحتقار تجاه العرب الخُص ، يعملون مع سائر الشعوب على الحط من شأن العرب ، فتقوى تلك الحركة التي بدأت على عهد بني امية وظلت تعمل في الخفاء حتى وجدت لها المجال واسماً في عهد العباسيين فظهرت كاعظم ما يكون قوةً واندفاعاً وكأشد ما يكون وطأة على العرب ، وهي الحركة الشعوبية المنسوبة الى الشعوب ، والمستندة خاصة الى الفرس .

الفرس

الفرس قوم ذوو مدينة عريقة ، وملك قديم ، وعصية وطنية قومية لم تكن لاهل البادية . فكانوا من هذه الناحية لا يجافون التفرق والتشعب ولا يحشون قتل التزعة القومية بالتزعات الفردية ، كما رأينا في الكلام على العرب . ثم كان ان عُزِّي الفرس في عقر دارهم ، وُغلبوا على امرهم في بلادهم لاسباب لا يتسع المجال لذكرها . غلبتهم هذه السرازم المحترقة في نظرهم . فدخلوا الاسلام ظائنين ان الدين الجديد يضمن لهم المساواة على الاقل ، وهو المعلم التسوية في كثير من الآيات القرآنية . على انهم لم يلبثوا ان شعروا بان عقلية البدو كانت اقوى من دينهم . وكان ما كان من احتقار العرب لهم مما ذكرنا شيئاً منه ، في ما تقدم . وكانوا يزدادون تأثراً وانفعالاً اذ يقابلون بين آدابهم ومدنيتهم وتاريخهم ومجمل ثقافتهم ، ونصيب العرب من ذلك كله . ويهتجون بالثورة فيجدون اليد الاموية ثقيلة الوطأة عليهم وعلى جميع الشعوب امثالهم . فينقلبون الى الحركة الصامتة المنتظرة اولى الفرص للوثوب والخروج . حتى اذا تسنت قاموا بالحركة العباسية وهي في صرماها النهائي شعوبية بل فارسية .

الشعوبية

ويجدد بنا هنا ان نقول ان الشعوبية كانت في اول امرها لا ترمي الى ابعاد من المساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية ، فتطالب بالحقوق التي خولها اياها القرآن ، ليس غير . بيد انها تجاه التصلب العربي والشموخ البدوي ،

دُفعت الى ان تادل الاحتقار بالمثل بل تزيد ، وهي سنة طبيعية، فالضغط يولد الانفجار ، والكيل انذي تنكيلون به يكال لكم ويؤاد .-

ويمل العباسيون بسياسةهم مجال العمل للفرس ، فاندفعوا لا يقفون عند حد في « تفريس » الخلافة ، اذا صح لنا هذا التعبير . فلم يكن العرب ليقفوا مكتوفين او ليندحروا ، يخذولين . فنشأ المراك الشديد بين عنصرَي المملكة المهين . وهو عراق لا نجازف اذا قلنا انه اقوى عراقٍ داخلي عرفته الدولة الاسلامية ، واقوى عراق ثقافي عرفته الآداب العربية : هو عراق في السياسة ، والدين ، واللغة ، والادب ، والعلم ، والاخلاق .

عراك في السياسة بين الملك الاعجمي والخلافة العربية .
وعراك في الدين اربأ بين المجوسية والاسلام ؛ ثم عراق في النِّقمة والتفسير ، بعد ان اطمأن الفرس الى الاسلام ، بين الاخذ بالرأي والقياس والاخذ بالتقليد عن السلف الصالح .

وعراك في اللغة بين الفارسية والعربية .

وعراك في الادب بين الشعر الجاهلي ، او الادب العربي المحض ، والشعر المولد او الطريقة المستحدثة بتأثير الفرس .

وعراك في العلم بين التقليد العربي المتناقل ، الذي ان لم يفد كثيراً فانه لا يضر ، والعلم الاجنبي المنقول عن المذنبات القديمة مما لم يكن للعرب به عهد . وعراك في الاخلاق بين تلك الشهوة البدوية الساذجة واللذة المنهومة نهماً التي كثيراً ما تتمتع بحسن القصد وصدق السريرة ، وهذه اللذة الفارسية الفنية المؤطأ لها بالاستعداد ، الآخذة بطرق المدنية على اختلاف مظاهرها .

وقد يفيدنا قبل ان نذكر نتيجة هذا المراك ان نطلع ، وان سطحياً ، على اسلحة المتعاركين فنقدرها ونقدر نتيجة المعركة ^(١) :

(١) من المصادر الانسانية لهذا البحث اقوال الجاحظ في البيان والتبيين ، والحيوان ، والرسائل ، ومروبات ابن قتيبة في كتاب العرب وعلومها ، وابن عبد ربه في الغناء والاسيابي في الاغاني ، وشارح الكندي من الشراء الباهيين . وقد استغل كل هذه الشواهد احمد ابن في فصل ممتع من « ضحى الاسلام » (ص ٤٤-٧٩) رحمننا اليه فاستفدنا منه . - ومن المفيد

اسلحة العرب

كان العرب يحاربون واسلحتهم الآتية :

١ - انهم افضل الناس ، لأن النبي منهم ، وهم الذين هدوا الشعوب الى الحق .

٢ - انهم اكرم الناس اخلاقاً ، ينحرون للضيف ، ويحافظون على انسابهم .
٣ - انهم اشد الناس انفةً من العار وبعداً عن الاستيلاء لأنهم لم يخضروا لاحد قبل الاسلام ، بل انهم اخضروا الناس بعده .

٤ - انهم اشهر الناس ، بل ان الشعر ولد فيهم فلم يتجاوزهم الى غيرهم .

اسلحة الفرس

اما اسلحة الفرس خاصة ، والشعرية عامة ، فهذه هي . وفي كآها ردّ لزاعم العرب :

١ - ان يكن النبي من العرب فاكثر الانبياء كانوا من غيرهم . ولا يجوز فخر العرب بالاسلام ، لان الاسلام ، في زعم العرب انفسهم ، غير مقصور على العرب .

٢ - اما كرم الاخلاق فابن هر ؟ وليس مجالاً للفخر ان يضيف البدوي تزيله في تلك الصحراء ، وكل بدوي عرضة لان يصبح ضعيفاً يوماً ما . ثم انها لمكرمة صغيرة ، ان كانت مكرمة ، لا تستحق ان يطبل بها الشعراء ويتباهون بذلك فخراً . اما الحرص على الانساب فهو من نوع التضليل ، واي انساب فهم ؟ وقد كانوا في جاهليتهم لا يتقيدون بنوع الزواج المعروف .

٣ - اما عدم خضوعهم لسطان الروم والفرس في جزيرتهم فلا ينتج من شجاعتهم ولا من انفتهم . انا ذلك لان الروم والفرس لم يروا ما يصلح في جزيرة العرب لان يسيروا اليها ، وهم لو ارادوا لما وقف البدو في وجوههم . ثم ان الفرضي لا تصلح مادة للفخر ، فاذا شازوا فليفتخروا بملك كملك الفرائدة

كذلك ان يُراجع فصل مكدونالد في « الشعرية » واستادها الى الترجمات القومية :
D. B. Macdonald, *Shu'ūbiyya* [Encyclop. de l'Islām V, 410]

والمعاقبة والقياصرة والاكسرة.

أ - وهنا يفيض الفرس في تبيان مزاياهم من الحضارة والادب والتاريخ...
 ب - اما الشعر فلم ينفرد به العرب ، فللفرس ، ولليونان ، وللروم شعر
 وخطب وبيان ساحر . فضلاً عن ان ذاك الشعر الجاهلي اصبح مما يكرهه
 العصر والمدنية.

هذه بالاختصار اهم اسلحة المتحاربين.

ثم ساروا يتقارعون ، وهم في صراعهم يستخدمون كل شي. من القرآن ،
 الى الحديث ، الى الشعر :

يستغلون القرآن . فيقول العرب انا عتانا ، اذ قال : « كنتم خير امة
 اخرجت للناس » ...^(١)

فيقول الفرس وقد قال : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ،
 وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »^(٢) . . . وانا معنى الشعوب : بطون العجم ،
 والقبائل : قبائل العرب ، والمقدم افضل من المؤخر .

ثم يستغلون الحديث فيضع العرب على النبي احاديث عديدة من امثال :
 « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي . »
 « اذا اختلف الناس فالحق في مضر . »

« احبوا العرب لثلاث : لاني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان اهل الجنة في
 الجنة عربي . »

فيضع الفرس احاديث وروايات تقاومها من مثل :

« لا تسبوا فارساً ، فما سبه احد ألا انتقم منه عاجلاً او آجلاً . »

« قد ذكرت الاعاجم عند الرسول فقال : « لانا بهم اوتقوني بكم »^(٣)
 و« رأى النبي كأنه ردفه غنم سود ، فردفته غنم بيض ما يرى السود
 فيها اكثرها . فاخبر النبي بذلك ابا بكر ، فقال : « السود العرب ويلسون ،
 والبيض العجم يلسون بعدهم حتى ما يرى فيهم العرب لكثرتهم . »

(١) ٣ [آل عمران] ١٠٦

(٢) ٤٩ [الحجرات] ١٣

ثم يستلزون الشعر .

فيجري العرب على طريقهم من الفخر بانفسهم ويهجون الهجم . ومن هذا شي . كثير مشهور فكفي منه بالقليل ، وتبسط في سرد اجوبة شعراء الفرس ، لانها اقل شهرة :

فيقول العربي :

انا من الذفر الذين جسام طامت على عماد بريير صرمر
وسلبن تاجي ملك قيصر بالنسا واجترن باب الدرب لابن الاصفر

ويهجون ائمة الفرس ، والبرامكة في مقدمتهم ، فيقولون :

اذا ذكر الشيرك في جلس ، انارت وجوه بني برمك
وان تليت عندهم آية ، اتوا بالاحاديث عن مزدك

ويقول رجل من اهل الشام يقابل بين البرامكة والامويين :

ابد مروان وابد آتمة وبد اسحق الذي كان لمة
صار على الذفر فرنج الزخمة ، ان لنا فضل يبي نفة
مهلكة ميرة متففة ، اكل بني برمك اكل المظفة
ان صدا اذكي يوماً نفة ايسر شيء فيه حزن القلصة

فيجيبهم شعراء الفرس قائلين :

فلت يترك ايوان كسرى لتروخ ، او لمسل ، فالدخل
وسير في ملاءع ، وذنوب جا يعوي ، وايث وسط غيل

ويقول الخرمي مقابلاً للفخر بالعرب بالفخر بالفرس :

وناديت من مرو وبلخ فرارماً لهم حس في الاكرمين حبيب
وان ايزسان كسرى بن هرزير ، وحاذين لي ، لو تلعين ، نيب
ماكنارقب انتاربي الشرك ، كلهم لنا تابع طوع القيساد جنيب
سومكم حوا ، وتفضي عليكم يا شاء منا مخطي ومصيب

ويقول بشار :

من احرسان ، ويبي في الذرى ؛ واذى المساة ، فرعي قد سبق

وله ايضاً :

واني لمن قوم احرسان دارهم كراير ، وفرعي فيهم ناصر سبق

ويقول المتوكل ، شاعر المتوكل ونديته :

... واولاكم الملك آباؤنا فما ان رنيم بشكر النيم
فودوا الى ارضكم بالمجاز ، لاكل الضباب ، ورعي الغنم
فاني ساعلو سرير الملوك بمد الحمام وحرف القلم

وكثيراً ما كان يتجاوز هذا الى التهكم بالساليب شعراء العرب انفسهم
في الفخر، كما قال مغلذ المرصلي يتهمكم على من كان كثير الاقتضار بعربيته:

انت عندي عربي ليس في ذاك كلام !
عربي ، عربي ، عربي ، عربي ، والسلام .
شراجفانك قيصوم ، وشيخ ، وقام .

وهذا ، وقد قال له احد شعراء العرب: ما للموالي والشعر ؟ فقال :

احين كُتبت ، بدالربي ، خزان ، ونادت الكرام على الفسار ؟
نفاخر ، يا ابن راعية وراع ، بني الاحرار ؟ حبيك من خسار ؟
تربغ بخطبة كسر الموالي ، وبنيك المكارم سيد فار ؟
وكنت ، اذا طلعت الى قراح ، شركت الكلب في واغ الاطار ؟
وتدو للنفاذ تدربسا ، ولا تفعل لدواج الديار ،
وتفزع الشال للابيا ، وترعى الغنم باليد النظار .

وقد ولد هذا النزاع فناً جديداً في الشعر قنماً على التهكم بطالع المتقدمين
والدعوة الى اختطاط اسلوب جديد في الشعر العربي ؛ فكان ، من هذه الناحية ،
حسن الثمرة لذيد الانتاج . وكان بشار وابو نواس اشهر الداعين اليه مما تسيطر
فيه اذا رُفقتنا الى الكلام على الادب . وقد يمكننا منذ الآن ان نشير الى
شيء من هذه الابيات التي تمثل ، بازاء التزعة الاديبة الجديدة ، تزعاً عنصرية
تمت الى الشعرية بسبب قوي ؛ كليات ابي نواس :

قل لمن ييكبي على رسم درس راقف : ما ضر لو كان جالس !
عاج الشفي على رسم ياشته ، وبجت اسأل من خسارة البلد
ييكبي على دلال الماضين من ايد ؛ لا در درت ! قتل لي : من بتو ايد ؟
ومن تيم ، ومن تيس ، ولتفهما ؟ ليس الاعارب عند الله من احد !
لا جف دمع الذي ييكبي على حجره ، ولا صفا قلب من يصبو الى وتو !
اعدل عن العال المعيل ، وعن هوى نبت الديار ، ووصف قبح الأؤند

ودع العُرب ، وغلغها في بزما لمخارِبِ الفِ الشفاء مُرْتَد

وقد استغلّ المتعاكرون أيضاً طرق التأليف فكثرت الكتب من جهة في مناقب العرب وفضائلها ، ومن جهة في مثالب العرب ومناقب الفرس . وكان من ممثلي الحزب الاول الاصمعي ، والثاني ابو عبيدة . الا ان اكثر الكتب من الفئة الثانية لم تصل الينا لأن المسلمين ، بمد هذا العصر ، رأوا في الدعوة الشعبية خروجاً على الاسلام ، فاتفقوا .

موقف الملقاء

وقد يتساءل الباحث عن موقف الخلفاء . من كل هذا ، فنقول انه يكفيننا ذكر بعض شراهد تجيب عن هذا السؤال افصح جواب :

قال السيوطي ان المنصور « اول من استعمل مواليد على الاعمال وقدمهم على العرب . وكثر ذلك بعده حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها . »^(١)

وقال الطبري : « كان للمنصور خادم اصفر الى الأدمة ، ماهر لا بأس به . فقال المنصور يوماً : ما جنحك ؟ قال : عربي ، يا امير المؤمنين . قال : ومن اي العرب انت ؟ قال من خولان سُيِّت من اليمن فاخذني عدو لنا . . . فاسترقت فصرت الى بعض بني امية ثم صرت اليك . قال : أما انك نم التلام . ولكن لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي . اخرج ، عافك الله ، فاذهب حيث شئت . »^(٢)

وتأثير البرامكة مشهور على عهد الرشيد . وكذلك تأثير الفرس على عهد المأمون ، ومن بعده حتى المتوكل الذي تقدم الترك ، فقتضوا على النفوذ الفارسي والعربي معاً . ولم يكن يتراجع كبار رجال الدولة من الفرس عن التبيخ بتسلطهم على الدولة باجمهها ، ومثهم على الخلفاء . بنصرهم ايام . فكان الحراسانيون يقولون : « نحن اهل هذه الدولة ، واصحاب هذه الدعوة ، ومنعت هذه الشجرة ، ومن عندنا هبت هذه الريح . والانصار انصاران : الأوس والخزرج نصروا النبي في اول الزمان . واهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان . »^(٣)

(١) تاريخ الملقاء . (طبعة مصر) ١٠٥٢ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ٣ : ٢٢٦ .

(٣) الجاحظ : مناقب الترك ، ص ٨ .

وكان الابناء يتولون : « ولنا بغداد بأسرها تكن ما سكننا ، وتحرك ما تحركنا . والدنيا كلها مطلقاً بها وصائرة الى معناها . . . »^{١)}

من الحق ان النزعة العربية كان لها تقدم وانتصار بعض الاحيان ، كما حصل اذ قتل المنصور ابا مسلم ، واذ اوقع الرشيد بالبرامكة ، واذ خلع الامين بيعة المأمون . . . انما هو انتصار مؤقت ، لا يظهر الا تراجع امام النفوذ الفارسي ، حتى يمكننا ، وقد عرضنا لجميع مظاهر هذا العراك ، ان نستتج قائلين :

ان يكن الفرس فشلوا في الدين فلم يتمكنوا من وضع المجوسية موضع الاسلام ، فقد زفقوا بعض الشيء في اللغة اذ طبعوها وذلّوها لهم وتسلطوا عليها . ووقفوا في الادب كذلك فحركوه وادخلوا فيه عاداتهم واخلقواهم وعملوا ، بمعاونة باقي العناصر الشعبية ، على قتل الادب العربي الصميم . بيد انهم وقفوا كل التوقف في محيط السياسة والادارة فحولوا الخلافة العربية الى مملكة فارسية باكثر مظاهرها . . . حتى امكن الملاحظ ان يقول : « دولة بني العباس اعجبية نرسانية . »^{٢)}

الترك

كانوا في اول امرهم خدماً عند الخلفاء . اول من اتخذهم ، على قول القلقشندي ، ابو جعفر المنصور ، اتخذ حماداً التركي . ثم اتخذ المهدي بعده مباركاً التركي . ثم اكثر الخلفاء من الاتراك بعد ذلك . وكان ان المعتصم اراد ان يتخّص من الرقابة الفارسية فعزز الترك ، حتى بلغ جنده منهم ٢٠ الفاً ، فخرج بهم عن بغداد الى سامراء^{٣)} .

وكان هذا الانتقال انتصاراً للترك على الفرس في نظره ، وانتصاراً للترك على الفرس ، وعلى العرب ، وعلى الخليفة نفسه في نظر الحقيقة . ثم اخذ عددهم يزداد في بطانة الخليفة . ووافقتهم ان المتوكل كان يبغض

(١) الملاحظ : الكتاب المذكور ، ص ١٦

(٢) الملاحظ : البيان والتبيين ٣ : ٢٠٦

(٣) اطلب بمشأ السابق في « مشرق » هذه السنة ، ص ١٤

الفرس ايضاً ، فمزّهم ليدافعوا عنه . ومن ثم بدأ استبدالهم بالخلفاء ، وهم اجراً من الفرس واقرب الى اراقة الدم لتربيمهم من الفطرة ، وبعدهم عن الحضارة والرقى . فكان اولى ضحاياهم من الخلفاء المتوكل نفسه ، قتلوه سنة ٨٦١ ، وولّوا ابنه المنتصر . فزاد استبدالهم . ومما يروي المؤرخون انه لما تولى المتّ بالله سنة ٨٦٦ قعد خواجه واحضروا المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة ؟ » . وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال : « انا اعرف من هؤلاء بتمدار عمره وخلافته » . فقالوا له : « فكم تقول انه يعيش وكم يملك ؟ » قال : « مها اراد الاتراك . » فلم يبقَ في المجلس الا من ضحك^(١) .

ولم يرد الاتراك ان يعيش الا ثلاث سنوات فقتلوه سنة ٨٦٩ شرّاً قتلة كما ذكر ابن الاثير قائلاً انهم « جرّوه برجله الى باب الحجره وضربوه بالدبابيس وخرقوا قيصه ، واقاموه في الشمس في الدار . فكان يرفع رجلاً ويضع اخرى لشدة الحر ، وبعضهم يطله . . . ثم ادخلوه سرداباً وجتصوا عليه فمات^(٢) » . ويطول بنا الشرح لو شئنا ان نتقصي افاعيلهم بالخلفاء .

وقد كانت سلطتهم المطلقة على الجيش يسيرونه كيف شاؤوا لانهم كانوا فيه اكثرية . ذكر الجاحظ ان جند الخلافة ، على عهد المتوكل ، كان خمسة اقسام : « خراساني ، وتركي ، ومولى ، وعربي ، وبنوي » . ثم لم يرض الفتح بن خاقان ، وزير المتوكل ، ان يميّز بين التركي والخراساني « لانهما اخوان » ، كما قال . وكذلك قال : « ان البنوي خراساني » . واذاً فان اربعة اقسام الجيش ، من حيث تركيب العناصر كانت متحدة على العرب . اما من حيث العدد فكان اكثرهم الاتراك . وهو ما سهّل للجاحظ ان يقول : « فصاروا للاسلام مادة ، وجنداً كثيفاً ، وللخلفاء رقايةً وموئلاً وجنةً حصينةً وشعاراً دون الدثار . »^(٣)

(١) ابن الطيّف . الفخري في الآداب السلطانية (طبعة مصر) ص ١٨١

(٢) ابن الاثير : الكامل ٦١ : ٢

(٣) الجاحظ : مناقب الترك ، ص ٤٩

وللجاحظ رسالة في « مناقب الترك » ارسلها الى الفتح بن خاقان وعدد فيها فضائلهم ، ركلمها حربية اشهرها صبرهم على احوال الشدائد من تعب وجوع وعطش ، ومقاساة عراقك . ورشاقتم في الرمي والطنن بالرمح القصير الاجوف ، واستعمال الوحق . ومنها انهم يصنعون اسلحتهم بايديهم ومجاريون فرساناً على البراذين لا يركبون غيرها . وهي صبرة كذلك على المشاق تنفع قناعتهم وتقاسي مقاساتهم ، فلا يكلفون الدولة كثيراً . فالتركي ، على حد قول الجاحظ ، « هو الراعي ، وهو السائس ، وهو الرائض ، وهو النخاس ، وهو البيطار ، وهو الفارس . فالتركي الواحد أمة على حدة . »^(١)

وله كلمة تدل على نفور التركي من النظام الاجتماعي المقر ، وميله الفطري الى النزو والغارات ، لا بأس بايرادها قال :

« وكذلك الترك اصحاب عمد وسكان فيافر وارباب مواش . وهم اعراب المعجم ، كما ان هذيلاً اكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب والفلاحة والهندسة ، ولا غرس ولا بئان ولا بئق انهار ولا جباية غلات ؛ ولم تكن همهم غير النزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وطلب الثنائم وقدويخ البلدان ، وكانت همهم الي ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المماني والاسباب مسخرة ومقصودة عليها وموصولة بها ، احكموا ذلك الامر باسره واتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسرهم . فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كالليونانيين في الحكمة ، واهل الصين في الصناعات ، والاعراب في ما عددنا ونزلنا ، وكآل ساسان في الملك والسياسة . »^(٢)

اما العلوم والآداب فكان من الطبيعي ان لا يهتم بها الترك اهتمام الفرس ، لانهم كانوا ، على حدة اذهانهم ، قليلي الاضطلاع بالثقافة العقلية ، لم يتعمدوا الاستقرار والتفكير . ولم نعرف نابتة منهم يذكر قبل العصر العباسي الثالث ، اي قبل ان يتر عليهم في الدولة الجديدة اكثر من مائتي سنة .

(١) الجاحظ : مناقب الترك ، ص ٢١

(٢) الجاحظ : مناقب الترك ، ص ٤٥-٤٦

الآراميون

وبضد الترك ، من حيث الاثر العقلي والثقافي ، كان الآراميون ، نقلة -
العلوم واساتذة المنطق والطب .

كانوا في تلك البقعة من قبل وصول الاسلام . كما يدل اسم الكرخ ،
قبل بناء بغداد ، واسم الشامية السريانيين^١ . والآراميون قسان : شريقون ،
وعنهم تفرغ النساطرة او الكلدان . وغريرون ، وعنهم تفرغ اليعاقبة او السريان .
وكانت لهم السديرة والمناسك والمدارس المهمة تنشر ثقافتهم اليونانية الاصل
والسريانية اللغة . وقد اشتهر من تلك المدارس مدرسة جنديسابور في خوزستان .
وجنديسابور من بناء سابور الاول ملك الفرس ، اتخذها مركزاً لاسرى الروم .
فكان لهم يد في نشر الثقافة اليونانية . ثم قام النساطرة واليعاقبة فنشروا ،
بلفتهم السريانية ، تلك الفلسفة اليونانية المنصّرة بطريق مدرسة الاسكندرية ،
ثم مدرسة الرها او اديسا . وكان لهم مجنديسابور بيارستان تعالج فيه المرضى ،
ويدرس الطب والعلوم اليونانية باللغة السريانية ايضاً . وقد نشروا تلك الفلسفة
باللغة الفارسية بين الفرس اولاً ، ثم بين العرب . وبها تأثر المسلمون في مجادلاتهم
الدينية وفي مناقشات فرقهم كالمعتاد وما اليها ، وذلك قبل ان تنتقل الكتب
اليونانية الى العربية نقلاً منظماً على عهد المأمون . فكان اثر الآراميين سابقاً
للترجمة عن اليونانية ، كما كانوا البادئين بهذه الترجمات ، فاخذوها اولاً عن السريانية
ثم عن اليونانية راساً ، واتصلوا بالعرب اتصالاً وثيقاً في بغداد . ولا يخفى ان
الكلام عن مجالس النقلة والمناقشة وادباب الكلام من النساطرة واليعاقبة يتطاب
بجاً على حدة . على اننا نكتفي الآن بذكر اشهرهم نقلة كانوا ام منجمين ،
ام اطباء^٢ .

١ راجع بحثنا السابق ص ٦٦ وما يليها

٢ اخذنا اكثر المعلومات عن اطباء الآراميين وقتلهم وسائر علماتهم عن القفطي : تاريخ
الحكماء ، وابن ابي اصيبه : عيون الانبياء في طبقات الاطباء . (طبعة مصر) ، وخصوصاً ابن
العربي : تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني) . ولا كان بحثنا هذا ما خلا لا يكاد يتجاوز
سرد اسما الاعلام ، لم نر من حاجة لذكر صفحات المآخذ .

وكان اول اتصال الآراميين بالخلفاء عن طريق الطب ، ثم التنجيم . فقد ذكر القنطري ، ومن تبعه من المؤرخين ، ان ابا جعفر المنصور أصيب بمرض في ممدته لم يتطع اطباؤه معالجته ، فدأوه على جيورجيس بن مجتيشوع ، رئيس اطباء جنديساور . فعالجه وشفاه . ومن ثم اتصلت هذه الاسرة الفسطورية الشهيرة بخلفاء الباسيين على مدة ثلاثة قرون . فكان منها مجتيشوع بن جيورجيس ، طيب الرشيد ؛ وجبريل بن مجتيشوع ، طيب المأمون وجعفر ، ومجتيشوع بن جبريل ، طيب المعتصم والوائق والثوكل ؛ وعبيد الله بن مجتيشوع طيب المقدر ؛ وجبريل بن عبيد الله ، طيب ملوك آل بويه ؛ وعبيد الله بن جبريل الذي نبغ في عصر بعد العصر الذي سبنا . وقد امر الرشيد اقدمهم جبريل بن مجتيشوع ان يبني بيغداد بيارستاناً على شكل بيارستان جنديساور فيناه . وكانت ادارته رقناً على اطباء جنديساور وتلامذتهم .

ولقد كان الطب في ذلك الحين يمثل اعلى درجة من الثقافة ، لان الطيب كان يقرب بعلومه معرفة المنطق والفلسفة ، والالهيات ، والحساب ، والهندسة ، والنجوم ، والموسيقى احياناً . واشهر من نعرف من فلاسفة العرب ، كانوا اطباء كالكندي وابن سينا وابن رشد وغيرهم كثير .

وهكذا كان اطباء النساطرة واليعاقبة يشتغلون بالفلسفة والمنطق . ففهم من يغلب عليه الطب كآل مجتيشوع ، وعيسى بن شهلانا ، وعيسى الصيدلاني طيب المهدي ، وجبريل الكرخال ، اي طيب العمون ، من اطباء المأمون . ويوسف الساهر المعروف بالقس ، التابع في ايام المنكفي ، سي الساهر لانه كان لا ينام في الليل الا ربه او ازيد . وابن العطار عيسى بن يوسف ، طيب القاهر . ومنهم من تقلب عليه الفاسفة والمنطق كيوحنا بن البطريق . وقد كان هؤلاء يعنون بترجمة الكتب اليونانية اما رأياً واما بطريق السريانية . واشهرهم في ذلك يوحنا بن ماسويه السرياني ، طيب المعتصم ، ولأه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة ، وتلخيصه حنين بن اسحق البارع باليونانية ، وابنه اسحق بن حنين المترجم النيسابور ، واخوه داود طيب الغامسة ، وابن عمها حيش بن الاعسم . ومتى بن يونس المنطقي الفسطوري تليذ «اسكرول مار ماري» ، على

قول ابن العبري ، المتعلم على يدي الراهبين اليعقوبيين روفيل وبنيامين . «وقد انتهت اليه رئاسة المنطقيين في عصره ومصره .» وسرجيس الراسيني اليعقوبي . ومن مشاهير النصارى الآراميين في المنطق والفلسفة والترجمة قسطا بن لوقا البعلبكي ، ويحيى بن عدي اليعقوبي التكريتي .

وقد كان لهؤلاء ثقافة واسعة تستند الى الادب استنادها الي العلم . فكانوا في مجتمعاتهم يتذاكرون الشعر السرياني واليوناني ، فضلاً عن العربي . وقد اشار ابن العبري الي انهم كانوا يتناشدون المقاطع من شعر هوميروس باللغة السريانية . ونحن نعرف ان الايلاذة والاولديسية كانتا مترجمتين الي السريانية شعراً . ترجمهما تيوفيل الزهاوي رئيس منجمي المهدي . «وكان تيوفيل هذا ، في قول ابن العبري ، على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى . وله كتاب تاريخ حسن . ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ابيون في قديم الدهر من اليونانية الي السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة .»^{١١} وقد اشتغل الآراميون كذلك بالتنجيم كما عرفنا في ذكر تيوفيل . جرحهم الي اتقان ذلك معرفتهم بالامور الفلكية ، واهتمام الخلفاء العباسيين بالتنجيم او معرفة المستقبل بواسطة النجوم . فقد ذكر عن المنصور انه استشار المنجمين في زمن الابتداء . بنينا . بغداد ، والوائق ، لما اشتد مرضه ، احضر المنجمين فاستشارهم في تاريخ مرقه فابأوه انه يعيش خمسين سنة ، فلم يعيش بعد قولهم الا عشرة ايام . وكان الخلفاء عليهم يستشيرون المنجمين قبل الخروج بالفرج ، او قبل حصار

(١١) ابن العبري : الكتاب المذكور ، ص ٢١٩-٢٢٠

اما ترجمة الزهاوي للبحر في هوميروس فلم يهتم عليها ، رغم تنقيب العلماء وابحاثهم . وقد ذكر مرتب الايلاذة « ان العلامة السعادي الماروني عثر على نسخة منها فحلها في ما حمل الي رومية من نقاش المخطوطات في اواسط القرن الثامن عشر . وامامته عاصفة في البحر فظنت عن السفينة ، فطفت كثيراً من تلك النقاش . ومن جعلها منظومات ازهاوي . » سليمان البستاني : الايلاذة هوميروس مترجمة نقلاً ، ص ٢٦٦ . وقد تنوقل من ترجمة الايلاذة من الشيد الثاني ، شطران سريانيان اوردتهما مرتب الايلاذة ، في الصفحة ٢٦٤ ، بتناصير المعنى الذي اشار اليه وهو :

لا يستهم الامر ، الا ان يكن فرداً يُؤزل صولجان الصولة

المدن، كما حصل للمعصم في فتح عتوربة، فلم يسمع قولهم وهجم عليها ففتحها .
وقد كان من فضل هذا التنجيم ان وثق ابا تمام الى مطلع بانته الجليل :

السيف اصدق انباء من الكذب في حذو المدأ بين الجبد واللب

ولعل اكثر الخفايا اهمالاً بهذا العلم كان المهدي، فاكثرت من المنجمين وجعل
رئيساً عليهم تيرفيل الماروني السابق الذكر .

وقد اشتهر من الآراميين ايضاً بهذا العلم وبالحداب اللاحق به يحيى بن
ابي المنصور، وكان من اقدر فلكي عصره على رصد الكواكب حتى ان
المأمون، لما عزم على التدقيق في حسابات الرصد، «تقدّم اليه والى جماعة من
العلماء بالرصد واصلاح آلاته فعملوا ذلك بالشامية ببغداد، رجبل قاسيون
بدمشق .»^(١)

الا ان الآراميين لم ينجحوا، على الغالب، بالنجوم والتنجيم فبحاح الفرس،
ومنهم آل نوبخت، وابو معشر الباهلي، وحيث الحاسب، واحمد بن كثير
الفرغاني، وابناء مرسى الخوارزمي الاصل . ولم يلبثوا خاصة شأوا الحرانيين .
وهم سكان مدينة حران في الجزيرة العليا بين الرها وراس العين . واشهرهم
ثابت بن قرة الرياضي الكبير منجم المعتضد، وسنان بن ثابت الطيب، وثابت
ابن سنان مدير بيارستان ببغداد، ومحمد بن جابر بن سنان، وهلال الصائفي .
وقد غلبت الرياضيات والنجوم والتنجيم على اهل حران، كما غلبت الفلسفة
والطب على الآراميين .

وهناك قوم من ننادى ببغداد غير الآراميين، كان لهم اثر في تلك المدينة
وهم من كانوا يدعونهم بالروم . وشاهدنا على وجودهم اسم الحي المعروف
« بدار الروم »، جنوبي الشامية، على الشاطي الشرقي من دجلة . وكان
هؤلاء ائمان تجار البيزنطيين يأتون من بلادهم آن السلم، فيقيمون المدة بعد
المدة وقد يتوطنون ببغداد . واما من الاسرى بقودهم الملون على اثر
الحروب فيبيرونهم، او يسلون فيدبحون من الموالي . وقد كان من الروم

(١) ابن العمري: انكتاب المذكور، ص ٢٤٢

جوارر كثيرات اشتهرنَ بفنون الادب والغناء والموسيقى الرترية . وان من يطالع كتاب الاغاني يرى ان اكثر المنقيات المشهورات كُنَّ من الفرس او من الروم او من المولدات ، كما ان اكثر المنقين واشهرهم كانوا من الفرس كذلك . والفرس والروم واليهود كادوا يحتكرون بيع الخمر وادارة بيوت الشرب واللهو، حتى روى الجاحظ عن ابراهيم بن هاني - وكان ماجناً خليعاً كثير الصبث متسرِّداً - قال : « ومن قام آلة الخنار ان يكون ذمياً ويكون اسمه اذنين او مازيار او ازدانقاذار ، او ميثا او شلوما . » وهي اسما فارسية ونصرانية يهودية .

اليهود

وكذلك اورد الجاحظ ان مما «عظم النصارى في قلوب العوام وحبهم الى الطغام أن منهم كتاب السلاطين ، وفراش الملوك ، واطباء الاشراف ، والطارين ، والصارفة . ولا تجد اليهودي الا صانعاً او دباغاً او حجاماً او قصاباً او شتاباً»^(١) هذه الصناعات كانت لليهود على عهد الجاحظ . بيد ان هؤلاء لم يلبثوا ان عظم شأنهم فذلوا حياً خاصاً في بغداد دُعي « درب اليهود »^(٢) . واخذوا يتوسعون بالاعمال التجارية ، حتى توصلوا الى الاخذ بالاساليب المسالية الكبرى كفتح المصارف المهمة وضان حاجات الجيوش ، بل كانوا اول من فتح المصارف الدولية في العالم^(٣) . فكان لهم في بغداد الادارات المركزية ، وفي سائر المدن الكبرى الشعب التثوية . ثم تقدموا حتى انهم كانوا يسكون النقود لحساب

(١) شتاباً : مصطلح الشعب اي الصنع . الجاحظ : الرد على النصارى (في مجموعة ثلاث رسائل ، طبعة J. Finkel ، ص ١٧٧)

(٢) نسب الى هذا المعنى الحديث ابو محمد عبد الله بن يزيد الله بن يحيى اليهودي . راجع ياقوت : معجم البلدان ٦ : ٤٥-٤١ ، مادة يهودية .

(٣) اطلب في هذا بحثاً جامعاً للماسينون :

L. Massignon, *L'influence de l'Islam au Moyen âge sur la fondation et l'essor des banques juives*. [*Bull. d'études orientales de l'Institut français de Damas*, t. 1]

الخلافة . وكان الخليفة يضع بين ايديهم جواهر المملكة ، ويمطيم اسرى الحرب . فكانوا يمتكرون العملة ، ويضنون النزوات والجهاد ، فيقدمون للجيش المؤن والذخائر ويأخذون الاسرى والسبايا والاسلاب .
وكذلك كانوا يمتكرون الصياغة ، او سوق الصرف ، والقياسية او سوق الانسجة الاجنبية الفائزة .

ومما يجدر بالذكر ان وزارة الدولة على عهد المقتدر (١٠٨٠-١١٣٢) منحت بعض صياغة بغداد من اليهود لقب « جهابذة الحضرة » - والجهبذ في الاصل الناقد ، العارف بتمييز الحيد من الردي - ويراد به الصيرفي الرسمي تضع السلطة بين يديه بعض وارداتها وتطلب منه ما تحتاج اليه من المال للنفقات المختلفة . اما هؤلاء الجهابذة فكانوا يوسف بن فنحاس او پنحاس - وقد ورد في تاريخ الوزراء للصايي : ابن فيحاس^(١) - وهرون بن عمران ، وزكريا ابن يوحنا . وقد يكون هذا الاخير نصرانياً ، كما لاحظ ماسينيون^(٢) . فكانت السلطة تُفقد عليهم نسفاً تارة ، وطوراً تصادهم وتضيق عليهم في طلب المال^(٣) . وحياناً تنفق معهم اتفاقاً يكون في مصلحة الجميع كالاتفاق الذي عقده الوزير ابو الحسن علي بن عيسى مع يوسف بن فنحاس وهرون بن عمران ، وملخص شروطه ان الوزير قال للجهبذتين المذكورين :

« انني احتاج في مستهل كل شهر الى مال اطلقه في ستة ايام منه للرجال ما مبلغه ثلاثون الف درهم . وربما لم يتجه لي في اول يوم من الشهر ولا في ثانيه . واريء ان تُقرضاني في اول كل شهر مائة وخمسين الف درهم . وترجمانها من مال الاهواز في مدة ايامه ، فان جهبذة الاهواز اليكما . ويكون هذا المال سلفاً واقفاً لكما ابداً . واضيف الى هذا المال الرظيفة التي على حامد وترد في كل شهر وهي عشرون الف دينار . فيكون ذلك بازا . مال القسط

(١) ملال الصايي : تحفة الامراء . في تاريخ الوزراء . (طبعة Amedroz) ص ٧٦ و١٥٨

(٢) Massignon, *loc. cit.* p. 5, note 5

(٣) الصايي : الكتاب المذكور ٧٦-٨٠

الاول . «^{١)}

وقد تحمل الوزير على عقد هذا الاتفاق لانه كثيراً ما كان يحمل مرعد دفع مرتبات الموظفين ، ولا مال لديه ، فيُدفع الى الاستلاف من التجار على سفاتج « بربح دانتق ونصف فضة في كل دينار يلزمه في كل شهر . «^{١)} اي ما يعادل ٣٠ بالمائة في السنة ، وهي فائدة باهظة . فرأى في هذا الاتفاق المذكور ، على ما فيه من الشروط الموافقة للصيرفيين ، مخرجاً من ذلك المأزق . وهو افضل لسمة السلطة من الاستلاف ، كما انه افضل من الالتجاء الى اعادة سك النقود وانقاص عيارها . وظلّ الاتفاق جارياً مدة ستة عشر عاماً على يوسف بن فنحاس وهرود بن عمران « ومن قام مقامهما »^{١)}

وكان الصيرفة اليهود يحفظون لحساب الدواة محصول « ديوان المصادر » اي مجموعة الثمرات التي كانت الحكومة تفرضها على من كان يرتقي من الموظفين ، فيستلونها ويتسرون الفوائد بينهم وبين الوزراء . وذلك بناء على اتفاق سرّي بين الصيرفي والوزير ، كما يستخلص من تاريخ الوزراء للصالي في المواطن المذكورة سابقاً . وقد يكون الخليفة عارفاً بهذا الاتفاق فيستفيد منه ايضاً . يدفعنا الى هذا الرأي ما وجد في دفاتر ابن فنحاس وشريكه عندما صادرهما الوزير علي بن عيسى ، وكانا قد اتفقا اتفاقاً سرّياً مع الوزير السابق ابن الفرات على الكثير من المضاربات المالية . فلما نُكِب ابن الفرات ، اراد علي بن عيسى محاسبتهما فلم يجد في الحساب الا إحالات على « حمل الى الخليفة والسادة . وشي . انصرف في خاص نفقات ابن الفرات . «^{١)}

وهكذا فانهم كانوا يرجون الخليفة، والوزراء ايضاً، دون ان تأثم الدولة باستعمال الربا . وكانت هذه الفوائد تمدّ عجز الميزانية في الدولة الذي كان يبلغ احياناً نحو المليونين من الدنانير ، كما يظهر من ارقام موازنة السنة ١١٨ ، على عهد المعتدر ، وقد بلغت دخلاً ١٤,٨٢٩,١٨٨ ديناراً (اي اكثر من ١

(١) الصابي: ك.م. ص ٨١

(٢) الصابي: ك.م. ص ٨٠

ملايين ليرة ذهبية فرنسية^{١١} وخرجاً ١٦,٩١٩,٠٨٢ ديناراً^{١٢}.

ومن أعمال اليهود المالية انهم كانوا يوفون شركات مساهمة لتجهيز القوافل الكبيرة بين مدن العالم الاسلامي ، بل لتجهيز النزوات البحرية ، في منابك الخليج العجبي ، على افريقية لسي العبيد او لشراء البضائع الثينة في الهند والصين ، وكذلك كانوا مجهزون النزوات البرية حتى اواسط آسية وبلاد السودان الشرقية .

وكثيراً ما ضمنوا جباية الضرائب في المقاطعات السحيقة .

وكانوا ، فرق ذلك ، يستملون المضاربة بالاسطر ، وباطار العملة خاصة ، يسهل عليهم ذلك وجود عملتين في تلك الدولة : العملة الفضية ووحدها الدرهم ، والصلبة الذهبية ووحدها الدينار . وقد قدمنا^{١٣} ان النسبة الاصلية بين الدرهم والدينار كانت من واحد الى عشرة ، اي ان الدينار كان في اصله يعادل عشرة الدراهم . فاخذوا يتلاعبون بذلك ويتفنون مع عملاتهم او فروع مصارفهم في القاهرة وغيرها من العواصم ، حتى اصبحت الاسعار تصعد وتهبط وتأتيهم بالارباح الوفيرة . ونظرة واحدة نلقيها على اضطراب سعر الدرهم بالنسبة الى الدينار تكفي لتتحقق هذا الامر :

في الاصل	دينار واحد =	١٠ دراهم
على عهد الرشيد	" " =	٢٠ الى ٢٢ درهماً
على عهد المتوكل	" " =	٢٥ درهماً
بعد المتوكل	" " =	١٤ الى ١٥ درهماً
على عهد المعتز	" " =	٢٠ درهماً

ويجدد بنا الا نندى ما قام به اليهود من تسهيل المعاملات المالية في العصر الذي ندرسه . وهو امر قلما اشار اليه المؤرخون ، حتى انبه له مؤرخاً الاستاذ

١١ راجع . في قيمة - بزاره - ورد في الفقه اقول من هذا البحث ، مشرق السنة

الحالية ص ١١٣-١١٤ .

١٢ *Mission, etc. etc.*, p. 3, note 5.

١٣ مشرق هذه السنة ص ١٤٠ .

ماسينيون في درسه نشأة المصارف اليهودية الدولية المذكور آنفاً . وتفصيله ان ارباب المصارف ، في تلك الايام ، اجتناباً لنقل الاموال بيميناتها مما كان يكلفهم النفقات الكثيرة ويعرضها للاخطار الجثة ، رأوا ان يستعملوا الحوالات المالية (lettres de change) ، والسفاتج (lettres de crédit) والصكوك (billets à ordre)^(١)

هذا ملخص موجز عن اهم اعمال اليهود المالية . ومن ثم فلا نرى ضرورة للتبسط في تفوذهم وتأثيرهم .
وقد كان منهم كذلك العلماء باللغة والادب كالبي عبيدة ، وبالطب والعلوم الدخيلة كما شاء . انه اليهودي ، فاثروا في الادب العربي تأثيرهم في المضاربات المالية والمصارف .

الهنود

ومن الشعوب التي تركت اثراً بعيداً في الادب العباسي الشعب الهندي . على ان هذا الاثر كان في اكثره عن طريق الكتب الهندية في الحكمة والحساب ، ولا تزال الى اليوم تنسب ارقامنا الى الهند فنقول «الارقام الهندية» .
اما افراد الهنود المانثون في بغداد فكان غالبهم من المتبحرين والاطباء . وقد عرفنا ، عن طريق الجاحظ ، ان «بيحي بن خالد البرمكي اجلب اطباء الهند مثل منكة ، وبازيسكر ، وتلابرقل ، وسندباذ» ومتن يذكر ايضاً بهيمة الهندي . وهناك مجال واسع لدرس النزاع والمنافسة بين الطب الهندي والطب الآرامي ثم ان الامة الهندية كانت معروفة في بغداد يترجم عنهم المترجمون^(٢) .
وقد لخص الجاحظ صفات اهل الهند كما عرفهم في بغداد . وهي :

« واما الهند فوجدناهم يُقدّمون في النجوم الحساب . ولهم الحظ الهندي خاصة ويقدّمون في الطب . ولهم اسرار الطب وعلاج فاحش الادوية خاصة .

(١) ويرى ماسينيون ان كلمة cheque الفرنسية انت من كلمة صك بطريق الانكليزية ، عبرة ربية - الهندية « تشيك »

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٧١٤

ولهم خراط التماثيل ونحّت الدور بالاصباغ . . . واشباه ذلك . ولهم الشطرنج وهي اشرف لعبة واكثرها تديباً وقطنة . ولهم السيوف القلمية ، وهم الب الناس بها . . . ولهم الرقى النافذة في السموم وفي الاوجاع . ولهم غناء معجب . ولهم الكنككلة وهي وتر واحد يُمرّ على قرعة فيقوم مقام اوتار العود والصنج . ولهم ضروب الرقص والحفّة . ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة . ولهم معرفة المناصفة . ولهم السحر والتدخين والدمازكية (٩) . ولهم خط جامع لحروف اللغات ، وخطوط ايضاً كثيرة . ولهم شمر كثير وخطب طوال وطب في الفلسفة والادب . وعندهم كتاب كليلة ودمنة . ولهم راي ونجدة . . .^(١)

الهنديون والصينيون والسودان

وكان في المجتمع المباني عدد لا بأس به من اهل السند والصينيين والسودان وكلهم اختلفوا بشي . من المرافق والصنائع . فكان السنديون من حذائق الطهارة ، ومشهورى صنّاع الاحذية ، حتى غدّت النعال السندية مضرب المثل . وقد اتصفوا بالدهاء . والنفوذ في المعاملات والامانة ، مما جعل ارباب بيوت الصرف يستخدمونهم في اعمالهم ، على حدّ قول الجاحظ : «ومن معاخرهم ان الصيارفة لا يولون اكيستهم زبورت صرفهم الا السند واولاد السند لانهم وجدوهم انفذ في امور الصرف واحةظ وآمن . »^(٢)

« فاما سكان الصين فهم اصحاب البك والصياغة والافراغ والاذابة والاصباغ الميجية ، واصحاب الحُرط والنحت والتصارير والندج والحطّ ورفع الكف في كل شي . يتزكّونه ويمانونه . وان اختلف جوهره وتباينت صنعه وتفاوتت ثمنه . فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون العلل . لان اولئك حكاء وهؤلاء . »^(٣)

اما السودان فاشتهروا في العاصمة العباسية بحسن الخدمة خاصة . وقد عرفوا

(١) الجاحظ : فضل السودان على اليبان ، ص ٨٤

(٢) الجاحظ : فضل السودان على اليبان ، ص ٨٥

(٣) الجاحظ : مناقب الترك ، ص ٤٤

بالشجاعة ، وشدة الابدان ، والسخا . والامانة حتى ان الجاحظ آلف فيهم رسالة سماها « فضل السودان على البيضان » .

وكان ارباب الملاهي ومدراء بيوت الضياء يتنافسون بالزنجيات في استعمال الزمار حتى قيل : « من تمام آلة الزمر ان تكون الزامرة سرداء » . والزنجيات من اشهر الاقصاد كذلك ، والزنجيون من نوابغ المهرة في الماء العامة . عرف منهم ، في العصر الذي يهتنا ، ابو ذؤبوبة الزنجي ، ذكره الجاحظ وقال عنه :

« ولقد كان ابو ذؤبوبة الزنجي ، مولى آل زياد ، يقف باب الكرخ بحضرة المكارين فيشوق ، فلا يبقى حمار مريض ، ولا هرم حدير ، ولا متب بهير ، الا نهق . وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تبث لذلك ولا يتحرك منك متحرك حتى كان ابو ذؤبوبة يحركه . وكأنه قد جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد . وكذلك في فباح الكلاب . ولذلك زعت الاوائل ان الانسان انما قيل له العالم الصغير ليل العالم الكبير لانه يصور بيده كل صورة ، ويحكي بقفه كل حكاية ، ولانه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل الحيران كما تأكل السباع ، وان فيه من اخلاص جميع اجناس الحيران اشكالاً . »^(١)

الزط

وهناك الزط ، وهم قوم من اخلاص الناس — ولهم اقرب الى « الزور » في عدونا — كانوا يجولون في الاحياء فيسرقون كل ما يغفل عنه اصحابه ، ويستعملون الكدية وهي سوزال الناس بمهارة وتقنن . وقد تقوى شوكتهم فيقطعون الطير بين البصرة وبغداد حتى يدفع الخليفة الى تسيير جيش لمحاربتهم ، فيقتل منهم مقاتلة عظيمة .

ولا يخفى ان مهنة الكدية تركت اثرًا عميقًا في اذبننا يتحققه كل من يقرأ مقامات المهذابي والحريري ومن اليها .

أر هذا التمازج

من الطبيعي ان هذه العناصر المتنوعة يؤثر بعضها في بعض اثرًا يختلف عمقه باختلاف المخالطة والمعاشرة . ولنا اليوم لتتقصى جميع هذه الآثار . انما هيئنا بها ما اختص بالادب واللغة .

اما الاثر في الادب فيتطلب سلسلة ابحاث قد نفردها مجالاً خاصاً .

واما الاثر في اللغة فكان على انواع :

منها ان اللغة العربية لم تكن وحدها لغة هذا الشعب . كانت اللغة الرسمية الدائنة في الدولة والدين . ولكن كان الى جنبها كل هذه اللغات يتكلمها اربابها ومن يتعاملون معهم . ولقد كان من العجب العجيب ان يجوز للانسان جولة في انحاء بغداد فيسمع اللغات المتباينة واللهجات المتنوعة . وكان اوسع هذه اللغات انتشاراً بين العامة اللغة الفارسية ، حتى قال ابراهيم بن هاني في ما نقل الجاحظ : « ومن تمام آلة الحارس ان يكون زميئاً قطرباً ، ايض اللحية اتني اجني ، وصاحب تكلم بالفارسية »^(١) . وقال الاصمعي متأثراً : ان من الدنائة التكلم في مصر عربي بالفارسية .^(٢) ولم يقتصر انتشار الفارسية على البيئة العامية ، بل كانت متفشية بين الكتاب والشعراء . وكفى بذكر اسماء ابن المقفع وسهل بن هرون والحريبي والمطاني والعتابي شاهداً مقنعاً . وكان الشعراء خاصة ، اذا ما ارادوا الابتكار والخروج من التقليد القديم الى المطاني المصرية ، لا يرون مندوحة عن قراءة الادب الفارسي ، بدليل ما ذكر طيفور عن العتابي ، وهو عربي الاصل من نسل عمرو بن كاثوم ، قال :

« حدث يحيى بن الحسن بن علي بن معاذ بن مسلم قال : اني بالركة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة اذ دعوت بغلام لي فكلمته بالفارسية . فدخل العتابي وكان حاضراً في كلامنا . فتكلم معي بالفارسية . نقلت له : « ابا عمرو ، مالك وهزم الرطانة . » (قال) فقال لي : « قدمت بلدتكم هذه ثلث

(١) الجاحظ : البيان والبيان ١ : ٨٠ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار (طبعة دار الكتب المصرية) ١ : ٢٦٦ .

قدمت . وكتبت كتب المعجم التي في الخزانة برو . . . كتبت منها حاجتي . ثم قدمت نيسابور وجزئتها بشر فراسخ الى قرية يقال لها ذُو دَر فذكرت كتاباً لم اقص حاجتي منه فرجعت الى مرو فاقت اشهرأ . « (قال) : قلت : « ابا عمرو ، لم كتبت كتب المعجم . « فقال لي : « وهل المعاني الا في كتب المعجم والبلاغة للغة لنا والمعاني لهم » . ثم كان يذاكرني ويحدثني بالفارسية كثيراً . «^١ وفي « بيان » الجاحظ^٢ كثير من الشعر العربي ادخلت فيه الالفاظ والمقاطع الفارسية تلاحاً وتقرباً من الخلفاء .

وقد ذكر الجاحظ اديباً من القصاص اسمه . موسى الاسراري ، فقال عنه : « وكان من اعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس في مجلس المشهور به فيقعد العرب عن عينه ، والفرس عن ياره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري باي لسان هو ايرين . واللذان اذا التقتا في اللسان الواحد ادخلت كل واحدة منهما الضم على صاحبها ، الا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الاسراري^٣ »

ومنها ان اللغة العربية الفصحى اكتسبت كثيراً من الكلمات الجديدة دخلت عليها من اليونانية والفارسية والبريانية والهندية بواسطة التراجم . واكتسبت كذلك معاني جديدة لكلماتها القديمة حدثت بفضل تأليف الفقه والكلام والفلسفة والنحو والعلوم الدخيلة على انواعها ، مما لا يتسع المجال لتمداده في هذا البحث . واكتسبت ايضاً مرونة في التعبير لم تعرفها في عهدها السالف .

على انها تأثرت بنسب ادخلته عليها لهجات الشعوب . وهذا الفساد على نوعين :

نوع حوّر في الالفاظ والتعابير والتراكيب العربية ، ولا سيما بعض قواعد

(١) طيفور : كتاب بغداد ٦ : ١٥٧-١٥٨

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٠٨-١١٠

(٣) ١ : ٣٤٤

الاعراب ، كالمذكّر والمؤنث والعدد ، فوُلد ما يُعرف باللغة العامية او الدارجة . حتى اضطرّ الكسائي ، على عهد الرشيد ، الى وضع رسالة في «لحن العامة» . ومن امثال هذا اللحن عدم مراعاة التراكيب العربية ، كما ذكر الجاحظ عن غلامه نقيس السندي الاصل من انه تشاجر وغلماً آخر فقال له : «الناس ، ويليك ، انت حياء كلهم اقل» يريد : « ويليك ، انت اقل الناس كلهم حياء» فاجرى الالفاظ العربية على طريقة التركيب في لفته . ومن هذا النوع جواب من قال اذ سُئل عن اي صنعة يجب ان يعلم الغلام الفلاني ، فقال : «اسلمره (اي ضموه) في اصحاب سند نعال» يريد «اصحاب النعال السندية»^١

ومن الامثلة على تلك اللغة العامية ما نقله صاحب الاغاني عن ان احدهم خاطب ابا العبر (وهو رجل غريب الاطوار فكاه فيه دعابة) وقد رآه على بعض الحالات المضحكة فقال : «خرب بيتك ايش هذا الصل ٩»^٢

وقد تفشّى هذا الخطأ في جميع المدن العراقية اذ ذلك ، حتى زعم ابو العاصي « انه لم يرَ قروياً قط لا يلحن في حديثه . »^٣ وحتى كان النحويون « اذا وجدوا اعرابياً يفهم هذا اللحن المتفشى في المدن بهرجوه ، اي زيغوه ، ولم يسموا منه »^٤ لعدم خلوص ملكة العربية .

١. ا. مرقف البدو من هذه اللغة فكان عجبياً . يستغربون هذا الامر ، ويستغربون فوقه ان هؤلاء الجماعة اللحانيين ، اي الذين يخطنون ، يتساجرون ويريجون . وقد مرّ احدهم في اسواق بغداد فبهر بجركتها ، فلم يتالك ان صاح : «هم يلحنون ويريجون ، ونحن لا نلحن ولا نريج .»

وهناك لحن آخر كان يقوم باللفظ ، او الخطأ في بعض مواقع الاعراب ، وذلك في الكلام الفصيح والخطابة ، وهو خاص بالعلماء . وارباب الثقافة على الغالب .

١) الجاحظ: البيان والبيان ٣: ٢٢٦

٢) الاغاني ٢٠: ٢٣

٣) الجاحظ: البيان والبيان ١: ١٢٤

٤) الجاحظ: البيان والبيان ١: ١٢٢

من ذلك الخلط في اللفظ بين بعض الحروف كالجيم والزاي ، والقاف والكاف ، والحاء . والحاء . والهاء ، والشين والسين ، والزاي والسين ، مما لا تزال نتحققه اليوم في من يتعلم اللغة العربية من الاجانب على تقدمه في السن . والمرب تسمي هذا الخطأ في اللفظ الألكنة . قال الجاحظ :

« وقد يتكلم المفلّاح الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيراً فاخراً ، ومعناه شريفاً كريماً ، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي . وكذلك اذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فانك تعرف ، مع إعرابه وتخيّر الفاظه في مخرج كلامه ، انه خراساني . وكذلك ان كان من كتاب الاهواز . ومع هذا انا نجد الحاكمة من الناس يحكي الفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يفادر من ذلك شيئاً ، وكذلك تكون حكايتهم للخراساني والاهوازي والنجفي والسدي والجبلي »^{١١} .

وقال ايضاً :

« الا ترى ان السدي ، اذا جلب كبيراً ، فانه لا يستطيع الا ان يجعل الجيم زايّاً ولو اقام في عليا تيم وسنلى قيس وبين عجز هوازن خمين عاماً ؟ وكذلك النبطي انقع ، خلاف المفلّاح الذي نشأ في بلاد النبط ، لان النبطي القح يجعل الزاي سيناً . . . والنخاس يتحن الجارية اذا ظن انها رومية ، واهلها يزعمون انها مرسة ، بان تقول : « ناعة » وتقول : « شمس » ثلاث مرات متواليات . »^{١٢} ومن شاعير اصحاب الألكنة هذه : ابو مسلم الخراساني ، كان جيد المعاني ، وكان اذا اراد ان يقول : قلت له ، قال : قلت له ، يحول القاف كافاً . ومنهم زياد الاعجم كان يجعل السين شيئاً ، والطاء تاء ، والحاء هاء ، وكان شاعراً مجيداً . ولكنه لم يكن يحسن الالتقاء . وقد مدح المهلب بن المغيرة فانشد :

فني راده الشتان في المسد رفبة اذا عبر الشتان كل جليل

يريد : السلطان والحمد . وكان منهم اكثر الاطبا . والمناطقة من آراميين وروم وفرنس وهنود .
وهناك ايضاً خطأ العلماء الناتج من اهمالم تطبيق القواعد ، على معرفتهم اياماً . فقد روي عن ابي عبيدة انه كان ، مع غزارة علمه ، لا يقم اعراب جملة ولا وزن بيت ينشده .

ومن هؤلاء ابو حنيفة الفقيه الكبير . وابن ضحيان الازدي ، وكان يقرأ القرآن فيقول : « يا ايها الكافرين . » ف قيل له في ذلك . فتخلص قائلاً : « قد عرفت القراءة في ذلك . واكتفي لا اجل امر الكفرة » (اي لا ارفعهم) .
وقد كثرت انتقاد العلماء على هذه الاخطاء . حتى اخذ بعضهم يهابون الكلام المحرك فيتجنبون الاعراب . وقد روي الجاحظ عن مهدي بن مهلهل انه كان يقول : « حدثنا هشام (مجزومة) ثم يقول : ابن ، ويجزمه . ثم يقول : حسان ، ويجزمه . لانه حين لم يكن نحوياً رأى ان السلامة في الوقت »¹⁾

هذا جل ما يقال ، بالاختصار ، عن تمازج الشعوب والثقافات في تلك المدينة العظيمة . اما التبسط في درس هذه الثقافات المختلفة وتأثير بعضها في البعض الآخر ، وتمازجها جميعاً الى توليد الادب الباسي ، فيتطلب البحث في اصول الثقافات ، واضطلاع الادباء والشعراء والعلماء بها ، ودرس مجالسهم وحلقاتهم الخاصة والعامة ، كل فريق منهم على حدة . مما قد نوقش اليه في المستقبل ، ان شاء الله .

